معول التحكم الأميركي: أزمة داعش

أ. م. د. جواد كاظم البكري*
باحث وأكاديمي من العراق

* كلية الادارة والاقتصاد ـ جامعة بابل

مقدمة

في عام 1818 صدرت للروائية البريطانية (ماري شيلي) رواية بعنوان (فرنكنشتاين) Frankenstein تدور أحداثها عن طالب ذكي اسمه (فيكتور فرانكنشتاين) في جامعة ركنسبورك الألمانية، استطاع أن يصل إلى طريقة بمقتضاها بعث الحياة في المادة، ويبدأ بصنع مخلوق هائل الحجم ولكنه يرتكب خطأ فيكتشف أن مخلوقه غاية في القبح، وقبل أن تدب الحياة فيه ببرهة يهرب من مختبر الجامعة، يعود بعد ذلك مع صديقة الذي جاء لزيارته إلى المختبر ولكنهما لا يجدا ذلك (المسخ) الهائل، تستمر أحداث القصة بحادثة قتل أخ (فيكتور) من ذلك (المسخ)، ثم بتهمة باطلة تعدم على أثرها الخادمة، (فرانكنشتاين) يعلم أن مسخه هو المسؤول عن هذه الأحداث، بعدها يأتيه (المسخ) ويطلب منه أن يصنع له امرأة، لأنه يشعر بالوحدة، ولكن (فرانكنشتاين) يخشى أنها ستكون شريرة مثل (المسخ) الذكر، ويفكر في إنهما ربما أنجبا مسخاً شريراً جديداً، وفي النهاية يُدرك أن صنيعته لذلك (المسخ) كانت وبالاً عليه وعلى من حوله.

ربما تكون أحداث هذه الرواية تدلنا على جزءاً من الحقيقة، التي تلف التنظيم الاكثر دمويةً في التاريخ الانساني المعاصر، إلا **وهو (داعش)**، وترشدنا إلى السياسات المتبعة من قبل القطب المهيمن (الولايات المتحدة الأميركية) بما يخص هذا التنظيم، والتي عادةً ما تنطوي على تناقض، فثمة نظريتان تتجاذبان أطراف التحليلات الجارية في أروقة مراكز الابحاث العالمية والعربية بما يتعلق بنشأة وتطور تنظيم (داعش): **الأولى**: استمدت

فرضياتها من نظرية المؤامرة Conspiracy Theory، إذ تعتقد بأن هذا التنظيم لا يبتعد عن مصانع الاستراتيجيات الاميركية التي تهدف إلى جعل القرن الجديد، كسابقه، قرناً أميركياً بامتياز، أما النظرية **الثانية**: فتعتقد بأن الخطاب الديني المتشدد، والكتب الدينية المهمة، والموروث النقلي المتناقض، والدعاة الحالمين بدولة الخلافة، والمعلمين المتحمسين بتغيير الواقع، فضلاً عن حالة اليأس والإحباط والفقر والمرض والبطالة والظلم والتهميش التي يعيشها أغلب الشباب العربي، وكذلك تراجع الدور العربي والإسلامي في أغلب الصعد والمستويات، وعوامل أخرى كثيرة اسهمت في صناعة «العقيدة الداعشية، التي هي وليدة الاضافات السلبية للثقافة الإسلامية منذ تبنى أول فكر دخيل على الإسلام المحمدي، وهو الفكر الوهابي (الجهادي)، وهناك من يعيد جذور هذا الفكر إلى الخوارج بعد قضية التحكيم بين الامام علي بن ابي طالب (ع) ومعاوية بن ابي سفيان، والتي كان من نتائجها انتهاء عهد الخلافة، وتأسيس أول نظام ملكي وراثي في النصف الأول من القرن الهجري، (لقد أخرج ابن حيان والإمام أحمد عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً «عضوضاً»).

العقيدة الداعشية، التي هي وليدة الاضافات السلبية للثقافة الإسلامية منذ تبنى أول فكر دخيل على الإسلام المحمدي، وهو الفكر الوهابي (الجهادي).

هذا النوع من الفكر وجد فيما بعد من أسس له فقهياً، وهو المذهب الفقهي لأحمد بن حنبل (780 ـ 855)، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة الذي يعد من أكثر المذاهب السنية تشدداً، ولكن هذا الفكر أخذ منحى أكثر تشدداً، على يد أحمد ابن تيمية (661 ـ 728)، بعد أن اتخذ منه مرجعاً لتبرير تشدده وتطرفه، فعلى الرغم من مرور كل هذه القرون مازال فكره وفتاويه مثاراً للجدل بين جمهور فقهاء المسلمين. فإذا كان أنصاره يعدونه مجدداً أحيا الدين، فإن خصومه يصفون فكره بالغلو والتشدد والانحراف، ويتهمونه بنشر الفكر المتطرف والإرهاب، وفكر (أحمد ابن تيمية) وجد من يحييه بعد ستة قرون من وفاته، إنها العقيدة «الوهابية» التي تشترك معه في الكثير من القواسم، بل ويعد أتباع هذا الفكر (ابن تيمية) الأب الروحي لهم.

من يعيد استقراء تاريخ بدايات انتشار «الوهابية» في بداية القرن التاسع عشر، سيكتشف الكثير من أوجه الشبه ما بين النهج العنيف الذي كانت تتبعه

هذه الحركة، وما بين العنف الذي يتبناه تنظيم «داعش» لفرض أفكاره وبسط نفوذه، فالملاحظ سرعان ما يكتشف أن جُل التنظيمات الارهابية اليوم على نطاق العالم، تستمد أفكارها من هذه السلسلة الفكرية التي ابتدأت بابن حنبل وانتهت بمحمد بن عبد الوهاب.

أن جُل التنظيمات الارهابية اليوم على نطاق العالم، تستمد أفكارها من هذه السلسلة الفكرية التي ابتدأت بابن حنبل وانتهت بمحمد بن عبد الوهاب.

وثمة نظرية **ثالثة** لم يتم الولوج في تفاصيلها كثيراً، وهي تمكن الولايات المتحدة من توظيف مخرجات هذه التيارات لخدمة استراتيجياتها الكونية، كما حدث في افغانستان بعد الغزو السوفيتي عام 1979، وكيف استطاعت من خلال فزاعة (داعش)، تنفيذ ما تريد في المنطقة من جهة، وجمعت بكل المتشددين في العالم في مكانٍ واحد من جهة أخرى .

أولاً: البعد الزماني... الخلق الأميركي للمجموعات الارهابية

أن حقيقة الولايات المتحدة لديها تاريخ متقد بدعم الجماعات الإرهابية، فإنها تاريخياً انبرت مع حلفائها العرب في منطقة الشرق الأوسط في جهودها لمحاربة الاتحاد السوفيتي من خلال خلق تنظيم القاعدة[1]، إذ إن الولايات المتحدة الأميركية في مرحلة الحرب الباردة لجأت لكل الوسائل لمواجهة الاتحاد السوفياتي ومحاصرته وإضعافه، ومن هذه الوسائل قيامها بتأسيس ودعم تنظيم القاعدة. فبعد تدخل الاتحاد السوفياتي في أفغانستان لدعم النظام الماركسي فيها في عام 1979، باشرت وكالة المخابرات المركزية الاميركية الـ(CIA) بالتعاون مع المملكة العربية السعودية ومصر ودول خليجية أخرى، بتشكيل تنظيم القاعدة من خلال دعم جماعات المتشددين الاسلاميين والسماح لـ(أسامة بن لادن)، أن يفتح في الأراضي الأميركية مكتبي تجنيد لرفد صفوف المتشددين المعارضين بالرجال، وكان الهدف هو استعمال تنظيم القاعدة ضد الاتحاد السوفياتي.

(1) GARIKAI CHENGU, How the US Helped Create Al Qaeda and ISIS, Counterpunch, 21SEPTEMBER, 2014.

تشير المعطيات أن (إسامة بن لادن) كان يتعاون مع الأميركيين بشكل وثيق، وطرح عليهم فكرة تقديم صواريخ (ستينجر)، وكما اعترف (زبغنيو برجنسكي) مستشار الأمن القومي الأمريكي السابقً في إحدى مقابلاته الصحفية: «أن (واشنطن) قامت بتزويد (المجاهدين) الذين حاربوا النظام في (كابل)، بالسلاح حتى قبل إرسال القوات السوفياتية إلى أفغانستان، وأن

الولايات المتحدة أرادت أن تجعل من أفغانستان فيتنام ثانية، لكن في هذه المرة ليس بالنسبة إلى الولايات المتحدة بل بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي»[2]، ثم اسهمت عدة بلدان عربية في دعم ما يسمى المجاهدين الافغان بالمال والرجال المتطرفون، إن لم يكن رسمياً فإن الحكومات العربية على علم بذهاب بعض من رعاياها إلى أفغانستان، في ظل فتاوي المتطرفين وفتحت أبواب الدعم اللامحدود المالي، والعسكري والسياسي والاعلامي، بهدف إيقاع أكبر الخسائر بالقوات السوفياتية واستنزافها، هذه الظروف هي التي ساعدت على تكوين تنظيم القاعدة من خلال دعم دولي من الولايات المتحدة وحلف الناتو ودعم بعض البلدان العربية.

(2) Eye fu ni pu li ke, through the political minefields: leaf Primakov Memoirs, 1991, page 76.

أن (واشنطن) قامت بتزويد (المجاهدين) الذين حاربوا النظام في (كابل)، بالسلاح حتى قبل إرسال القوات السوفياتية إلى أفغانستان.

والواقع الحالي يشير إلى أن التاريخ يعيد نفسه وما كان صالحاً من سياسات، على الرغم من مرور اكثر من نصف قرن عليها، من الممكن أن تصلح اليوم، وقد أكد هذه الحقيقة الجنرال الأمريكي المتقاعد) ويسلي كلارك)، القائد السابق لحلف شمال الأطلسي مؤكداً (إذا كنا نريد اشخاصاً يقاتلون حزب الله حتى الموت، سوف لن نضطر إلى وضع اعلانات لاستقدامهم، بل كل ما علينا هو توظيف هؤلاء المتعصبين والمتطرفين الدينيين فهؤلاء وحدهم يقاتلون حزب الله)[3].

(3) Interview in CNN, 2015.

ثانياً: البعد المكاني... لعبة الجغرافية

أدت الجغرافية السياسية دوراً محورياً في قيام الولايات المتحدة بالسماح لنمو تنظيم (داعش)، الواقع الحالي يشير إلى أن هناك أساساً ثلاث حروب تُخاض في سوريا: الأولى بين الحكومة والمتمردين، والثانية بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية والمملكة السعودية، والثالثة بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، ومن الممكن تسمية الأخيرة بمعركة الحرب الباردة الجديدة New Cold War، التي جعلت صناع السياسة الخارجية الأميركية يقررون تسليح المتمردين الاسلاميين المتشددين في سورية، ومن ثم تحوّل هؤلاء المتمردين من تنظيماً عراقياً محلياً إلى تنظيماً اقليمياً، بعد أن أضاف اسم الشام إلى العراق ليصبح تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام)، ملوحين علناً ببنادق M16 الأمريكية الصنع.

الولايات المتحدة، في واقع الأمر، تستعمل هذا التنظيم بثلاثة طرق:

الأولى لمهاجمة أعدائها في الشرق الأوسط، والثانية لتكون بمثابة ذريعة للتدخل العسكري الأمريكي في الخارج، والثالثة لإثارة تهديداً محلياً مصطنعاً لشرعنه وتبرير التوسع الخارجي غير المسبوق أمام مواطنيها.

ترى الولايات المتحدة في حلفائها المقربين في الخليج بؤرةً لتمويل الإرهاب.

ترى الولايات المتحدة في حلفائها المقربين في الخليج بؤرةً لتمويل الإرهاب، إلى حد أن (واشنطن) وصفت (قطر)، هذه الدولة الخليجية الصغيرة، بأنها بيئة متساهلة مع تمويل الجماعات الإرهابية، وتقول الولايات المتحدة إنها لا تملك أدلة على أن الحكومة القطرية تموّل الجماعات المتطرفة، وتعتقد أن أفراداً في قطر يساهمون على المستوى الشخصي في تمويل هذا التنظيم وغيره من أمثاله، لا بل تعد أن الدولة الخليجية لا تبذل جهوداً كافية لوضع حد لهذه الظاهرة، وفي سبيل التأثير على السياسات القطرية، انتهجت الولايات المتحدة مقاربة العصا والجزرة مع حليفتها القطرية، بحيث انهالت عليها بالثناء على الأنظمة الجديدة التي وضعتها لمكافحة تمويل الإرهاب، فيما عمدت إلى ردعها في السر عن دعم التنظيمات الإرهابية وأحياناً لومها علناً على ذلك، لكن المشكلة الجوهرية هي أن الأجندة الأمريكية لمكافحة الإرهاب تتعارض أحياناً مع ما تعده قطر مصالحها السياسية الخاصة. فقد اقتضت الاستراتيجية الأمنية لـ(قطر) أن تدعم عدد كبير من التنظيمات الإقليمية والدولية، بهدف ردّ التهديدات عن البلاد. وقد تضمنت هذه الاستراتيجية تقديم المساعدات السخية للمنظمات الإسلامية، بما فيها الإخوان المسلمين وتلك المقاتلة مثل (حماس) وطالبان[4].

أما ما يخص السعودية فقد استلذّت بالزحف السني الأخير الذي قادته (داعش) ضد (الشيعية) في العراق

أما ما يخص السعودية فقد استلذّت بالزحف السني الأخير الذي قادته (داعش) ضد الحكومة (الشيعية) في العراق على حد تعبيرها، وكذلك بالمكاسب التي حققها التنظيم في سورية على حساب الرئيس السوري بشار الأسد[5]، فكثيرةٌ هي الحكومات في المنطقة وخارجها التي تموّل في بعض الأحيان الأحزاب المعادية، من أجل الإسهام في بلوغ أهداف معينة في سياساتها، والأمر ينطبق حتماً على السعودية، إذ اعترف الأمريكان في أكثر من مناسبة أن جُل المساعدات لتنظيم (داعش)، تأتي من السعودية من خلال جمع التبرعات من قبل (رجال اعمال ورجال دين وجمعيات تسمى خيرية)،

(4) Lori Plotkin Boghardt, Qatar and ISIS Funding: The U.S. Approach, Washington Institute, August 2014.

(5) Lori Plotkin Boghardt, Saudi Funding of ISIS, Washington Institute, June 23, 2014.

ولكن المنطق يشير إلى أنه لا يعقل أن تكون السلطات السعودية لا تعلم بكل هذه الحملات والتحويلات المالية الضخمة[6].

وقد أكد نائب الرئيس الأمريكي (جو بايدن) هذه الحقيقة في محاضرة له أمام الطلاب في جامعة هارفارد الأمريكية، عندما قال إنَّ تركيا، وقطر، والإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، عاقدوا العزم على اسقاط (بشار الأسد) وضخ مئات الملايين من الدولارات وعشرات آلاف من أطنان الأسلحة إلى من يقاتل ضد (بشار الأسد)، بما في ذلك جبهة النصرة وتنظيم القاعدة والعناصر المتطرفة من الجهاديين القادمين من أجزاء أخرى من العالم[7].

منذ عام 2013 كانت هناك تقارير عديدة تؤكد أن مقاتلي جبهة النصرة يعالجون في مستشفيات فلسطين المحتلة، وقد أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) اثناء زيارته لهؤلاء الجرحى في أوائل عام 2014، كما ذكرت تقارير قوات حفظ السلام الدولية في الجولان المحتل ملاحظاتها للتفاعل الحاصل بين قوات الدفاع الصهيونية ومقاتلي جبهة النصرة على الحدود السورية وفلسطين المحتلة، وفي الوقت ذاته تم العثور على أسلحة صهيونية مع الجماعات المتطرفة في كل من سوريا والعراق، في تشرين ثاني 2014 احتج أفراد الأقلية الدرزية في الجولان ضد دعم المستشفى الصهيوني لمقاتلي جبهة النصرة وتنظيم الدولة الاسلامية[8].

ثالثاً: التوظيف الأميركي لداعش

بعد أحداث 11 أيلول 2001 استطاعت الولايات المتحدة من تحقيق أهدافها في منطقة الشرق الاوسط، من خلال تشكيلها محوراً عالمياً لـ(الحرب على الارهاب)، وأصبح هذا الشعار هو المحور الأول في العلاقات الدولية تحت ضغط الولايات المتحدة، التي شرعنت بذلك احتلالها لأفغانستان والعراق، وفي 24 أيلول من عام 2014 استطاعت الولايات المتحدة إجبار منظمة الأمم المتحدة بإصدار قرار يمهد الطريق لحرب مفتوحة تحت اسم (مكافحة الإرهاب)، وأعدا أن تستمر هذه الحرب لسنوات، هذا القرار الذي بني على دعائم الدعاية ذاتها التي افرزت حملة (الحرب على الارهاب) في عام 2011، وهي اسطورة (العدو الخارجي،

تم العثور على أسلحة صهيونية مع الجماعات المتطرفة في كل من سوريا والعراق.

(6) Patrick Cockburn, The Rise of Islamic State: Isis and the New Sunni Revolution, Verso, London, 2015.

(7) White House press center, October 4, 2014.

(8) Prof. Tim Anderson, The Relationship between Washington and ISIS: The Evidence, Global Research, March 08, 2015.

وتهديد الإرهاب) وهي ذرائع لا نهائية لحشد الرأي العام خلف الاجندة الأميركية ـ الغربية للغزو والحرب الطويلة.

المتتبع لتنظيم (داعش) يجد أن بوصلة هذا التنظيم لم تتجه يوماً إلى الكيان الصهيوني، بل إلى دول المنطقة التي لا تسير بالركب الأميركي.

والمتتبع لتنظيم (داعش) يجد أن بوصلة هذا التنظيم لم تتجه يوماً إلى الكيان الصهيوني، بل إلى دول المنطقة التي لا تسير بالركب الأميركي، فلم يهدد التنظيم يوماً أية دولة من دول الخليج أو الدول غير العربية في المنطقة، التي تتحالف مع الولايات المتحدة الأميركية من مثل تركيا، بل استطاع هذا التنظيم أن يفرض واقعاً جغرافياً جديداً، يتناغم والواقع التي تريد (إسرائيل) فرضة على المنطقة، وهو تقسيم المقسم على وفق مشروع الشرق الأوسط الكبير، إذ إن زراعة هذا التنظيم داخل منطقه الشرق الأوسط، سيخلق سبباً للولايات المتحدة لتواجدها وتنفيذ مخططها المعروف بالشرق الأوسط الكبير وحماية حليفتها الكيان الصهيوني، بل انهماك جيرانها بحروب محلية تقودها التيارات المتشددة وحرب عصابات طويلة الأجل بين جيوش المنطقة العربية النظامية، وهذه الجماعات الإرهابية ضمن الفكرة الأميركية الفوضى الخلاقة Creative chaos.

رابعاً: الحملة الجوية الأميركية على داعش... العملية الناعمة

تحدثت الكثير من التقارير عن قيام الطائرات الاميركية والبريطانية بألقاء السلاح إلى مقاتلي تنظيم (داعش)، وقد لاقت هذه التقارير انكاراً على المستوى الرسمي في الغرب، ولكن التاريخ الأميركي يؤكد أن (واشنطن) ممكن أن تؤدي «لعبة مزدوجة» A double game في سياق تعاملها مع الملفات العالمية الساخنة، وهناك مجموعة من المبررات المنطقية لأثبات ذلك، من أهمها أن الولايات المتحدة تريد اسقاط نظام الرئيس بشار الاسد، وتعلن في الوقت نفسه محاربة الجماعات المتطرفة التي تقاتل لأسقاط الرئيس السوري(بشار الاسد)، وأصبحت هذه المطالبات أكثر أهمية في عام 2014، عندما تحول منطق الاستهداف الأمريكي لسورية من (التدخل الإنساني)، إلى تجديد ما جاء به (جورج دبليو بوش) وهو (الحرب على الإرهاب).

وإذا ما اعتقدنا بمبدأ أن الولايات المتحدة الأميركية اليوم تستعمل سياسة (إعادة التوجيه) The Redirection، بهدف الاستفادة من (الدول السنية) في

المنطقة لاحتواء المكاسب الشيعية في العراق الناجمة عن الغزو الأمريكي عام 2003، فأن هذه الدول لا يمكنها تنفيذ تلك السياسة والقيام بإضعاف الجمهورية الإسلامية في ايران وحزب الله والعراق وسوريا والأعداء الرئيسين للكيان الصهيوني، إلا من خلال ذراع قوي تهدد به تلك الدول، وقد وجدت ضالتها في تنظيم (داعش) الذي من الممكن أن يستطيع تنفيذ كل تلك المهمات.

أما وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون فقد ظلت تردد على الدوام، أن الغارات الجوية وحدها التي يشنها الجيش الأميركي وحلفاؤه ضمن التحالف الدولي، لن تتمكن من القضاء على تنظيم (داعش)[9]، وتأتي هذه المسوغات لشرعنه التدخل العسكري البري في كلا الدولتين، ولوضع الرأي العام العالمي أمام وهم مفاده أن هذه الحملة الجوية لن تؤدي إلى نتيجة ما، لم تحصل في إطار استراتيجية أكثر شمولاً تتضمن تدخلاً برياً محمياً بغطاء جوي، وهذا ما تصر عليه (تركيا)، وتؤكد عليه (قطر) و(السعودية)، وهي البلدان الأكثر معرفة وسطوة على تلك المجموعات الإرهابية.

(9) John Kerry, the press center of the Pentagon, 1 November 2014.

وختاماً، يبقى التساؤل الذي يحدد نوايا الولايات المتحدة الحقيقية اتجاه تنظيم (داعش) هو: ماذا لو تم هزيمة هذا التنظيم مقابل خسارة العراق، فالولايات المتحدة تعتقد أن هزيمة التنظيم في العراق، سيفضي إلى المزيد من نفوذ فصائل المقاومة الإسلامية في المشهد العراقي، تلك الفصائل التي ما فتئت بتحقيق الانتصار تلو الآخر، وفعلت ما لم يستطع الجيش العراقي وغارات التحالف فعله، فالولايات المتحدة تعد تلك الفصائل مليشيات مدعومة من الجمهورية الإسلامية في ايران، وهي تملك القدرة اللازمة للتغلب على القطاع الأمني في العراق ما بعد داعش، ما يؤدي إلى تحويل العراق إلى شبيه بـ «حزب الله».

الولايات المتحدة تعتقد أن هزيمة التنظيم في العراق، سيفضي إلى المزيد من نفوذ فصائل المقاومة الإسلامية في المشهد العراقي.

وكما حدث في مؤتمر (يالطا) عام 1945، تجد الولايات المتحدة اليوم نفسها في خضم حرب، حيث يتعين عليها طرح أسئلة صعبة حول كيفية انتهاء الحرب، وسبب خوضها، وهوية حلفائها، وكيف سيتصرف هؤلاء الحلفاء بعد انتهاء الصراع، فترى الولايات المتحدة أنه مع أن المعركة الجارية في العراق تستحق العناء، إلا أنها معقدة وتزداد تعقيداً في ضوء النفوذ الإيراني المكثف.